هل تستطيع روسيا غزو العالم؟

للأستاذ فؤاد طرزي المحامي

عندما أعلن كارل ماركس نبوءته بشر بثورة العمال الكبرى التي ستنهي المرحلة الرأسمالية وتقيم على أنقاضها عالماً نظاماً شيوعياً ، وقال إن الفقر سيكون الدافع الذي يعجل بهذا الانهيار . وقد حصلت الثورة في روسيا وقام أبطالها بتطبيق نظريات كارل ماركس تمهيداً لإنشاء المجتمع الشيوعي الموعود . واليوم ، وبعد أن مر أكثر من ثلث قرن على هذه الثورة ، نسمع أن الجيش الأحمر حل محل ثورة العمال ، وأن زعامة ستالين خلفت الفقر في تولي قيادة التاريخ . وبهذا تعلق مصير الشيوعية بهذا الجيش وبهذه الزعامة ولم تعد تعني تطوراً اجتماعياً حتماً لابد منه . وبناء على هذا التحول نتساءل الآن عما إذا كان في إمكان الجيش الأحمر ومن وراءه قوته روسيا غزو العالم وإقامة النظام الشيوعي ؟

* * *

لقد اتضح بسرعة بعد الثورة الروسية أن هؤلاء الاشتراكيين البلشفيين أناس يختلفون في نزعتهم عن أولئك البلغار الدستوريين والثوريين من اتباع كريسنكي . لقد كانوا من الشيوعيين المتعصبين ، وكانوا يعتقدون أن تسلمهم للسلطة في روسيا ليس إلا بداية للثورة الاجتماعية ، فعملوا على تغيير النظام الاجتماعي والاقتصادي وإقامة نظام جديد بعقول لم تنضجها التجارب . وإن كانت الحكومة البلشفية قد نجحت في كفاحها ضد التدخلات الخارجية والثورات الداخلية ، إلا أن نجاحها كان أقل في محاولاتها لإقامة نظام اجتماعي جديد يرتكز على المبادىء الشيوعية . فقد كان الفلاح الروسي ، ذلك الفلاح الجائع صاحب الأرض الصغيرة ، بعيداً عن الشيوعية في أمانيه وطرائقه في الحياة بعد الموت مثل الطيران كما يقول ويلز . إن الثورة منحته أرضاً من تلك الأراضي التي كان يملكها الملاك الكبار ، ولكنها لم تيسر له إنتاج غذائه لغير معاملات التبادل النقدية ، بل إن الثورة دمرت من بين ما دمرت قيمة النقد ذاتها . يضاف إلى ذلك أن الفوضى كان قد سبق لها أن شملت الإنتاج الزراعي من جراء انهيار طرق السكك الحديدية أثناء الجهود الحربي فتقلص هذا الإنتاج تقلصاً انتهى به إلى أن غدا مجرد إنتاج للطعام بتعهده الفلاحون لاستهلاكهم الخاص . وجاعت المدن وفشلت فشلاً تاماً كل المحاولات الارتجالية الداعية لتحويل الإنتاج الصناعي وفقاً للمبادىء الشيوعية . وما إن حل عام ١٩٢٠ حتى كانت روسيا قد عرضت أول اتجاه من نوعه في المدنية الحديثة إلى الانهيار التام . وأعقب ذلك انهيار خطوط السكك الحديدية وخراب المدن وسريان الدمار إلى كل مكان . وفي عام ١٩٢١ حل جدب عام وسرت بين الفلاحين المتجمعين مجاعة كبرى دمرت المناطق الجنوبية وأجاعت الملايين من الناس .

ووسط هذه الظروف المؤلمة وضعت التصاميم لتنفيذ عملية الإعمار ، ووضعت سياسة اقتصادية جديدة . وبمقتضى هذه التدابير منحت حرية لا بأس بها للمالك الفردي ولصاحب المشروع الخاص على عكس ما يتطلبه المنطق الماركسي . ولهذا لاح أن روسيا قد تحللت من الاشتراكية وأنها أصبحت تعيش في ظروف تشبه نوعاً ما تلك الظروف التي كانت عليها الولايات المتحدة في الثلاث الأولى من مئة تاريخها . فقد ظهرت طبقة الفلاحين المرفهين من الكولاك الذين يشبهون الفلاحين الأمريكيين الصغار وتضاعف عدد التجار المستغلين . ولكن الحزب الشيوعي لم يكن يميل إلى ترك وسائله الخاصة في سبيل السماح لروسيا أن تسير على النمط الذي سارت عليه اليقظة الأمريكية منذ مئات السنين .

وفي عام ١٩٢٨ بدأ مجهود ضخم جبار لإعادة البلاد إلى الطريق الشيوعي في التطور الاجتماعي . فوضع مشروع الخمس سنوات وفق تصميم يروم دفع البلاد إلى الأمام لتحقيق توسع سريع في ميدان التصنيع ، وعلى الأخص ، وبصورة كبيرة ، في مجال المصنوعات الثقيلة وإعادة تنظيم الإنتاج الزراعي حسب أسلوب الإنتاج الكبير الذي تتعهده المزارع التعاونية . وفي شهر يناير من عام ١٩٢٤ خسرت روسيا قيادة لينين البارعة ، وكان خلفه ستالين صاحب يد قوية قاسية فعمل على تصنيع البلاد بالعنف ولكنه لم يعبأ أي تقدم رغم كل المحاولات . وما إن حل شتاء عام ١٩٣٣ ١٩٣٤ حتى وجدت روسيا نفسها دفعة واحدة تواجه نقصاً كبيراً

في الطمام . وخلال كل هذه المراحل كانت بقية الدول في العالم مشغولة في اجتناء ثمار الفائدة الخاصة ، مراقبة التجربة الروسية مراقبة يعتريها الفضول بعدم الثقة والتهيب . ولكن هذه التجربة كانت تتحول من حال إلى حال ومن شكل إلى شكل . فإن الضغط العنيف على المعارضة قد استمر على قوته مما اضطر كل أسلوب من أساليب المقاومة أن يعمل في الخفاء والسر ، وبذلك كان الأمر ينتهي بالمعارضة المضغوط عليها إلى أن تصبح معارضة دموية . وأخذت دوامي الانفصال تأكل في قلب النظام الجديد ، وأعقب وفاة لينين صراع طاحن من أجل السلطة ، بين تروتسكي الذي يعزى إلى قيادته العسكرية اللامعة النجاح الذي أحرزته الجمهورية في المعارك الدفاعية التي خاضتها عام ١٩١٩ — ١٩٢٠ وبين ستالين سكرتير الحزب الشيوعي سابقاً . إن التفاصيل الكاملة لهذا الصراع المعقد لا تزال غامضة لم يزح عنها النقاب ؛ فقد كان تروتسكي موهوباً ولكنه كان مغروراً ، أما ستالين فكان صلباً مستبداً برأيه . وأدى الصراع بينهما إلى تقسيم القوة الماركسية اليسارية في جميع العالم إلى جبهتين متخاصمتين .

وشوهد في روسيا نفسها الكفاح السري الذي يؤججه المعارضون من الموظفين والمستخدمين ضد ستالين في إدارته ، ولكن أكثر قوى هذا الكفاح قد ضاع في وسط شديد التموض ونشت بين الجبهات المعارضة بكل تأكيد بعض الخيانات والانشقاقات ، إلا أن هناك احتمالاً يقرب من اليقين يؤيد بأن المعارضة كانت موجودة في زمان لينين ، وأنها ازدادت نشاطاً وترابطاً بعد وفاته . وسلكت الحكومة الستالينية في بادىء الأمر سياسة معتدلة مع هؤلاء المعارضين لفترة من الزمن . وقد سبق إلى المحاكمة عدد من الموظفين المسؤولين ومعهم عدد من الفنيين البريطانيين متهمين بأنهم يعوقون عن عمد المحاولات الجارية لتصنيع روسيا . وانكشف الستار بعد عدة محاكمات متتالية عن عناصر سياسية متآمرة . ولكن حتى مقتل واحد من أقرب المقربين إلى ستالين وهو وزيره (كيرون) الذي قتل أثناء قيامه بواجبه في الكرملين في أول ديسمبر ١٩٣٤ ، وإلى حد هذا التاريخ كان المتهمون يساقون إلى السجن أو إلى المنفى ؛ إلا أن الأمور بعد هذه الحادثة أخذت تتجهم وتزداد حلوكة . ففي ربيع ١٩٣٤ فقد ستالين زوجته في ظروف لا تزال إلى الآن غير معروفة بل وأن هناك من يظن أنها انتحرت بسبب الآلام التي قاساها الفلاحون عند تطبيق مشروع السنوات الخمس . وبعد أن نفض ستالين يديه من جميع معارضيه قتلاً وتشريداً وحبساً وجد نفسه بلا صديق حميم فراحت المحاكمات السياسية تتبع الواحدة الأخرى ، وأصبح الموت هو الشيء الوحيد الذي يتبع مجرد الاتهام ، وقتل القادة البولشفيك الواحد بعد الآخر ، ولم يبق منهم غير اثنين أو ثلاثة . وغدا ستالين طاغية لا يعرف معنى التسامح ولا أسلوب التسويات بل كان همه مكافحة المتآمرين على حياته ومصلحته .

هذه هي الحالة التي كانت عليها روسيا عام ١٩٣٨ ؛ فالحياة المادية فيها — كما يقول ويلز في كتابه تاريخ العالم — كانت تعاني الإجهاد يصاحبها نقصان تدريجي في الإنتاجين الزراعي والصناعي . وقد كان في وسع الجيش الهتلري لو وجه كل قواه منذ أول الحرب لغزو روسيا أن ينجح أكثر من نجاحه الذي حققه في الغزو الذي شنه بعد أن استنزفت القوى الألمانية وبعد أن استطاع الإنجليز والأميركيون أن يزيدوا مواردهم ويضاعفوا إنتاجهم .

ومع أن قوات الروس والحلفاء ظلت متعاونة قرابة أربع سنين إلا أن الهوة التي تفصل بين الأهداف الروسية والأهداف الأميركية سرعان ما فصلت بين الحلفاء الغربيين وبين روسيا بمجرد انتهاء الحرب ، وعاد العالم — كما حدث في كل مراحل التاريخ — لينقسم إلى معسكرين متعاديين متعارضين ، وأخذت تتردد أحاديث الحرب الجديدة على الشفاه ، فيكتب عن هولها الملقون ، ويتنبأ بنتائجها الباحثون والكاتبون . ولا يمكن حتى لأشد الناس تفاؤلا أن يكتم يقينه بوقوع الواقعة يوماً ما ، لأن ستالين قد أعد جيشه الأحمر ليكون رسولا لمبادىء كارل ماركس ، كما سبق لهتلر أن أعد جيش الرايخ ليقيم النظام الجديد . فما هي الموارد التي تمون هذا الجيش الذي أضحى بديلاً من الثورة العالمية الكبرى ؟ أو بمعنى أصح ، هل روسيا قادرة على تحقيق حلم ستالين بإقامة قيصرية روسية كبرى مركزها الكرملين ؟

* * *

هل تستطيع روسيا أن تثير حرباً ؟ هذا هو السؤال الذي